

كيف حول اقتصاد السوق روسيا من مستورد للقمح إلى مصدر؟

صائب خليل

الفضل في هذه المقالة يعود الى صديق لبرالي كان كلما كتبت منشورا ابين فيه مساوئ "اقتصاد السوق"، جاءني بالحقيقة المفحمة: لكن روسيا التي كانت تستورد القمح أيام السوفييت والاشتراكية، صارت مصدرة له حين اتبعت اقتصاد السوق! لذلك قررت ان ابحت عن حقيقة هذه المعلومة، فوجدت شيئا لا يسره.

لكن قبل ذلك وجدت ان الصديق لم يكن وحده من يتحدث عن هذه الحقيقة وبهذه الطريقة كعلامة فشل للاشتراكية واثبات تفوق "اقتصاد السوق" عليها، بل وجدت مواقع لمؤسسات محترمة، تنهج النهج نفسه، فكتبت صفحة "الحبوب العالمية" حول الموضوع:

"ان قصة انتقال روسيا من بلد يعتمد بشكل كبير على القمح المستورد لتلبية حاجاتها الغذائية الأساسية إلى أكبر مصدر له، هي قصة قل مثيلها في هذا الزمن"

ومضى يشرح كيف أن روسيا بعد تحررها من "نير الحكومة المدمر"، "زادت" انتاجها من القمح، ليس فقط ليغطي حاجتها بل، وباستعمالها أساليب السوق بشكل يشبه ما في الغرب، انتقلت الى التصدير... الخ.⁽¹⁾

وفي مقال اقتصادي آخر يشير احد الباحثين الى انه لو أن الاتحاد السوفيتي اتبع سياسة "الخصخصة الكاملة" و التحول الى "اقتصاد السوق" و "البرلة" الزراعة، لكان ممكنا له ان يحقق الاكتفاء، بل وربما يستطيع تصدير الحبوب وخاصة القمح.⁽²⁾

وأخيرا وقعت على جدول يبين بالفعل ان روسيا خفضت استيرادها من الحبوب فور انتقالها الى اقتصاد السوق، ثم بدأت تصدرها بدلا من استيرادها! ولأني اعرف عدة امثلة عن مجاعات حصلت في دول فقيرة وكانت تصدر الطعام استجابة ل "اقتصاد السوق"، وعلى حساب شعوبها، بحثت عن جداول الإنتاج في تلك الفترة الانتقالية لروسيا. ووجدت جدول ب "الإنتاج" و "التصدير" لحبوب روسيا، أصدرته وزارة الزراعة الأمريكية (الجدول المرفق) وهنا كانت المفاجأة! كان انتاج روسيا قد انخفض بالفعل ولم يزد عما كان في زمن الاشتراكية، لكن الاستيراد توقف وبدأ التصدير! ماذا يعني هذا؟ يعني ان الشعب لم يعد قادرا على شراء ما كان يشتريه في الحقبة السوفييتية لانعدام الدعم الحكومي للأسعار، فقام التجار بتصدير ما كان على مائدة الناس!

وانقل لكم ما ورد في تقرير وزارة الزراعة الامريكية عن تجارة الحبوب للدول الثلاثة التي كانت ضمن الاتحاد السوفيتي: روسيا وأوكرانيا وكازاخستان:

في بداية السبعينات بدأت الحكومة السوفييتية بالتوسع في قطاع الماشية، بهدف أساسي هو تحسين مستوى معيشة الفرد بزيادة حصته من اللحم ومنتجات الألبان. وبدعم جانبي الإنتاج والاستهلاك للماشية والسيطرة على الأسعار، تمكنت الحكومة من رفع انتاج اللحوم بأكثر من 60% خلال عشرين عاما بين 1970 و 1990. (المصدر: Liefert, 2001; Liefert and Swinnen, 2002) ووصل استهلاك اللحم والألبان للفرد الواحد في الاتحاد السوفيتي إلى نسبة مقاربة للدول المتقدمة الأكثر ثراء، رغم ان الناتج القومي للفرد الواحد كان في احسن الأحوال لا يصل الى نصف ما هو في الدول المتقدمة. ولأن الاتحاد السوفييتي عجز عن انتاج العلف اللازم لقطاع الماشية المتعاظم، اصبح من المستوردين الكبار للحبوب والصويا. التحول الى اقتصاد السوق في 1990 قلب الاتجاه. فبسبب التناقص في الخزينة، الغت الحكومة الدعم الكبير للزراعة، وخاصة قطاع الماشية.. الذي انخفض في روسيا إلى اقل من النصف مما كان عليه، وسرعان ما بدأت الزيادة في استيراد اللحم. وكان هذا الانخفاض في قطاع انتاج الماشية، السبب الرئيس في تحول الدول الثلاثة في النهاية الى ان تصبح مصدرة كبيرة للحبوب، بالرغم من ان انتاجها من الحبوب كان اقل مما كان عليه في نهاية الفترة السوفييتية.⁽³⁾

ونلاحظ ان الحكومة السوفييتية لم تفضل ان تستخدم منتوجها العالي من القمح محليا من اجل غذاء افضل للناس، بل كانت تستورد أيضا. وحين جاء اقتصاد السوق الذي لا يأخذ حاجة الناس بنظر الاعتبار انما الربح فقط، فإنه سلب المواطنين ذلك

الغذاء وحوله الى التصدير، رغم ان الإنتاج كان قد انخفض من 95 مليون طن متري إلى الثلثين (63 طن متري) خلال عشر سنوات، وانخفض انتاج اللحوم الى النصف خلال عام واحد!⁽⁴⁾

إذن لم تكن " قصة انتقال روسيا إلى مصدر للقمح "قصة قل مثلها في هذا الزمن" لتبيان تفوق انتاجية اقتصاد السوق، بل العكس تماما، قصة اعتيادية متكررة لاستغلال الأثرياء انتاج البلد وثروته بعيدا عن شعبه.

ونلاحظ في الرسم البياني المرفق أن الناتج القومي السوفيتي للفرد كان في تصاعد مستمر منذ تم انشاءه ولم يهبط بشكل واضح الا في فترتين: فترة الحرب العالمية الثانية، وفترة سقوطه بيد "اقتصاد السوق"، وتشابه تأثير هذان الحدثان على الناتج القومي يحكي الكثير.⁽⁵⁾

<https://www.world-grain.com/articles/7189-opinion-how-russia-became-first-in-wheat> (1)

<https://www.jstor.org/stable/1243844> (2)

https://www.ers.usda.gov/webdocs/outlooks/39804/34899_whs13a01.pdf?v=4135 (3)

<https://www.sosland.com/fall-and-rise-of-russian-wheat/> (4)

https://upload.wikimedia.org/wikipedia/commons/e/e9/GDP_per_capita_development_of_the_Soviet_Union.svg (5)

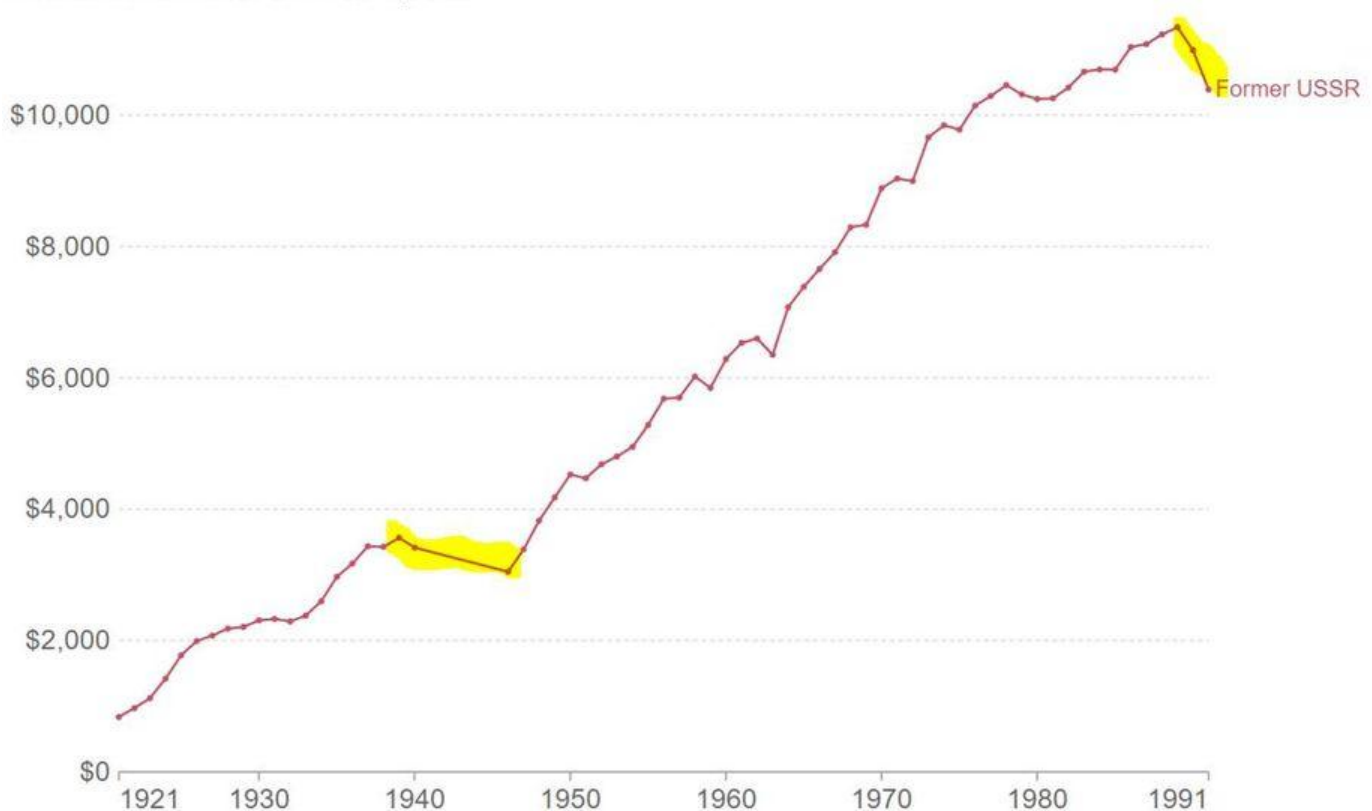
KRU grain and meat production and trade

	Grain		Meat	
	Production	Net trade	Production	Net trade
<i>Million metric tons</i>				
Total KRU				
1987-91	160	(16.2)	12.2	(1.0)
1992-95	138	(2.1)	8.7	(1.0)
1996-2000	100	4.0	5.6	(2.4)
2001-05	125	20.9	5.6	(2.8)
2006-10	139	35.8	7.2	(3.4)
Russia				
1987-91	95	(20.9)	7.4	(1.7)
1992-95	84	(7.9)	5.4	(1.2)
1996-2000	63	(3.0)	3.5	(2.5)
2001-05	76	8.1	3.7	(2.7)
2006-10	82	14.1	4.9	(2.9)
Ukraine				
1987-91	43	0.1	3.7	0.4
1992-95	35	0.0	2.5	0.1
1996-2000	26	2.7	1.6	0.1
2001-05	34	8.2	1.4	(0.0)
2006-10	39	14.3	1.6	(0.3)
Kazakhstan				
1987-91	21	4.6	1.1	0.2
1992-95	19	5.7	0.9	0.1
1996-2000	11	4.3	0.5	(0.0)
2001-05	14	4.6	0.5	(0.1)
2006-10	17	7.4	0.7	(0.2)

GDP per capita, 1921 to 1991

Our World
in Data

GDP per capita adjusted for price changes over time (inflation) and price differences between countries – it is measured in international-\$ in 2011 prices.



Source: Maddison Project Database 2020 (Bolt and van Zanden (2020))

OurWorldInData.org/economic-growth • CC BY

https://upload.wikimedia.org/wikipedia/commons/e/e9/GDP_per_capita_development_of_the_Soviet_Union.svg